السينما الصينية ... نظرة عن قرب ..!!

أ. شيرين ماهر
باحث بالهيئة العامة للاستعلامات

استطاعت السينما الصينية أن تثبت قدرتها التنافسية وأن تحجز لنفسها مقعداً خاصاً فى عالم صناعة السينما، على الرغم من وجود منافس "هوليودى" قوى يصعب تجاهله، حيث وصف الناقد الفرنسى الشهير "جان ميشيل فرودون" صعود موجة السينما الصينية الجديدة منذ أوائل التسعينيات بأنه "الحدث الأهم " فى تاريخ صناعة السينما خلال الثلاثين عاماً الماضية، وذلك لظهورها فى وقت حرج، سعت خلاله إلى إثبات الهوية السينمائية الأسيوية، بالرغم من تحول كافة الأنظار آنذاك نحو سينما الغرب.

وانطلاقاً من قدرة "العملاق الأصفر" على النفاذ إلى فحوى الرسالة السينمائية وإتقان تماهيها مع الواقع، وبفضل تطور التكنولوجيا الرقمية الحديثة، صارت السينما الصينية اليوم واحدة من أقوى صناعات الفن السابع فى العالم، سواء من حيث عدد الأفلام التي تنتجها أوعدد المشاهدين الذين تجتذبهم، وكذلك من حيث قيمتها الفنية، وقدرتها على حصد الجوائز السينمائية الرفيعة، والتواجد بقوة على رقعة المنافسة العالمية.

ويعود الفضل فى اكتشاف الغرب للسينما الصينية الى مهرجان "كان" ومهرجان "نانت" لسينما القارات الثلاث، الذي يقام فى مدينة "نانت" الفرنسية منذ أكثر من ثلاثين عاما، وقد كشفت موجة الأفلام الصينية أنذاك عن قدرتها على رصد المتغيرات التي طرأت على المجتمع الصيني خلال عشرين عاماً، وذلك بالمقارنة مع العديد من السينمات العالمية الأخرى، كما أخذ تأثير هذه الموجة السينمائية الجديدة ينسحب على العديد من المخرجين الجدد فى كافة أنحاء العالم.

خمسة أجيال مهدت لرحلة الصعود!

تتمتع السينما الصينية بتاريخ طويل حيث تواجدت على الساحة الفنية منذ أكثر من ١٠٠ عام، إلا أنها لاقت قدراً من التهميش باستثناء بعض المتخصصين، نظراً للاهتمام المبالغ فيه بالسينما الأوروبية والأمريكية آنذاك، وقد عرفت الصين الفن السينمائى منذ وقت مبكر، حيث شهدت العروض السينمائية الأولى عام ١٨٩٦ أي بعد ظهور الاختراع الجديد فى باريس على أيدي الأخوين "لوميير"، فيما شهدت السينما الصينية ميلادها الحقيقى عام ١٩٠٥، عندما قامت بإنتاج أول فيلم سينمائي تسجيلي بعنوان "معركة دينغ جون شان" المقتبس عن مقطوعة غنائية "لأوبرا بكين".

وبدءًا من عام ١٩١٣ ظهر جيل الرواد الصينيين الذين تلقوا تدريبهم فى الولايات المتحدة و أوروبا، ليشكلوا "**الجيل الأول**" وهى مرحلة السينما الصامتة، وكان من أبرز الأسماء فى ذلك الوقت المخرج "زانغ سيشوان"، الذى قدم فيلمه الأول "زوجان قليلا الحظ" عام ١٩١٣، وهو أول فيلم صينى روائي.

كذلك اعتمدت السينما الصينية فى بادىء الأمر على شركات أجنبية، إذ أن صناعة السينما المحلية لم تبدأ بشكل جدي إلا فى عام ١٩١٦، وقد تركزت فى "شنغهاى"، وقد استمر التأثير الأمريكي على السينما الصينية لمدة عقدين من الزمن، وبظهور السينما الناطقة، ظهر "**الجيل الثانى**"، وكان من أبرز سمات هذه المرحلة فى تاريخ السينما الصينية اشتباكها بالسياسة، وهو ما بدا تأثيره جلياً على تيمة الأفلام المقدمة آنذاك والتى اكتسبت صبغة سياسية واضحة، كتجسيد الصراع بين الحزب القومى الصينى "الكومنتانج" والشيوعيين والغزو الياباني للصين، كما تميزت السينما الصينية آنذاك بالحيوية وتنوع أساليب الإخراج تأثراً بالسينما الاجتماعية الأمريكية والفرنسية والألمانية لكبار المخرجين مثل "كينج فيدور"، "فرانك بورزاج" و "فرانك كابرا"، إلى جانب تألق عدد من السينمائيين من جميع التخصصات .

ومنذ أواخر العشرينيات أصبحت مدينة شنغهاي مركزاً هاماً لانتاج الافلام الصينية، حيث تأسست فيها أكثر من ٢٠ شركة إنتاج سينمائى، قدمت عشرات الأفلام الروائية الصامتة؛ البوليسية والعاطفية، وعلى الرغم من بساطة البناء الدرامى لهذه الأفلام، إلا

أنها مثلت نواة الانطلاق لظهور صناعة السينما فى الصين، حيث خاطبت جمهور المدن المتعلم والواعي نسبياً، نظراً لتمركز دور السينما التي تعرض هذه الأفلام فى المدن.

ويمكن اعتبار فترة الثلاثينيات بمثابة الانطلاقة الحقيقية للسينما الصينية، حيث بدأ التيار التقدمي أو اليساري بإنتاج الأفلام السينمائية، ففى عام ١٩٣١ انتجت الصين أول فيلم ناطق وهو "**مطربة الفراولة الحمراء**"، وفي عام ١٩٣٢ أسس الحزب الشيوعي الصيني فرقة سينمائية، أنتجت مجموعة من الأفلام السينمائية المتميزة منها (ثلاثة نساء معاصرات)، (المرأة السحرية)،(على قارعة الطريق) وغيرها.

وفي عام ١٩٣٨ تم تأسيس رابطة سينمائية فى (يانان)، كما أنتج السينمائيون عدداً من الأفلام التسجيلية كان منها (جيش الطريق الثامن)، (الدكتور بيثون) و(الحياة العسكرية لجيش الطريق الرابع الجديد)، حيث وثقت هذه الأفلام تاريخ النضال الثوري للشعب الصيني .. ويمكن القول بأن حركة التحول الكبرى فى صناعة السينما الصينية كانت مع مجيء الشيوعيين الى السلطة عام ١٩٤٩، حيث كان الحزب الشيوعي يرغب فى إنتاج نوع مختلف من الأفلام داخل استوديوهات الدولة من أجل مخاطبة جمهور الفلاحين فى الريف والطبقة العاملة فى المدينة، وكانت مثل هذه الأفلام تحمل رسالة تعليمية بسيطة، لكنها مصممة لتمهيد الطريق أمام برنامج الإصلاحات الكبيرة، وسعياً لإقرار قوانين جديدة.

وبالتزامن مع إقامة جمهورية الصين الشعبية عام ١٩٤٩- وهو ما يعد بمثابة صفحة جديدة فى التاريخ الصيني- ظهر "**الجيل الثالث**"، وسمى بـ "**جيل الثورة الصينية**"، الذى تورث التقاليد الواقعية التي ميزت السينما فيما قبل فترة الثلاثينيات والأربعينيات، حيث حاكى النموذج السوفيتى إلى حد كبير، وأسس على التوالي ثلاثة استوديوهات فى منطقة الشمال الشرقي وبكين وشنغهاى، ومن ثم جرى تصوير الأفلام الروائية بوتيرة متزايدة، كما أسست الصين معهدها السينمائي عام ١٩٥٦ تحت إشراف وزارة الثقافة، حيث بدأ الشباب الصيني التعرف بشكل علمي وأكاديمى على صناعة السينما، مما أهلهم للانتقال إلى أكاديمية السينما فى بكين.

ومنذ ذلك التاريخ وحتى عام ١٩٦٥ انتجت الصين (٦٠٣) أفلام روائية و(٣٣٠٠)

فيلم قصير من الأنواع المختلفة، كما أقامت وزارة الثقافة الصينية فى عام ١٩٥٩ شهر الأفلام الجديدة، إحياءاً للذكرى العاشرة لتأسيس الجمهورية الشعبية، وقد حظيت الأفلام الروائية بشهرة واسعة لدى المشاهد الصينى، وكان من أهم هذه الأفلام (لمسة شيوي)، (أنشودة الشباب)، (متجر أسرة لين)، (خمسة أزهار ذهبية).. وقد تميزت هذه الأفلام بمستوى فني لافت للأنظار.

وشهدت السينما فى تلك الحقبة انتشاراً واسعاً، الا أن مرجعياتها الفكرية والجمالية لم تبتعد كثيراً عن مفاهيم "الواقعية الإشتراكية".. وفى خضم الثورة الثقافية تم إغلاق معهد السينما فى عام ١٩٦٦ كغالبية المؤسسات الصينية، وفى عام ١٩٧٠ استأنفت الاستوديوهات عملها على استحياء وانتجت أفلاماً ثورية ذات طابع مسرحي، ثم تنوعت تدريجياً الموضوعات وإن ظل الشكل خاضعا للقواعد الستالينية التي وضعها ماو عام ١٩٤٢ فى كتابه "أحاديث عن الأدب والثقافة"، وعادت معدلات الإنتاج إلى وتيرتها الطبيعية فى عام ١٩٧٦، ثم أعيد افتتاح معهد السينما عام ١٩٧٨.

وفى أواخر السبيعينيات أخذ "**الجيل الرابع**" فى الظهور، وأطلق عليه العديد من النقاد "**جيل التضحية**"، نظراً لاهتمامه بإعادة إحياء السينما الصينية فى توقيت حرج للنهوض بمثل هذه الصناعة فى ظل أزمة اقتصادية طاحنة ورقابة سياسية صارمة، حيث يرجع الفضل فى إرساء قواعد نهضة صناعة السينما الصينية إلى هذا الجيل، حتى وصلت إلى ما هى عليه الأن، فى ظل اهتمام البرنامج الاصلاحي الاقتصادي بقيادة حافلة "الثقافة" بمجملها نحو التطوير عبر الاطلاع على المنتج السينمائي الأوروبي.

بينما لم يتحقق هذا التطور على أرض الواقع، إلا بعد اختيار المخرج "وي تيانمنج" رئيساً لاستوديو "تسيان" عام ١٩٧٣، حيث قرر أن يدخل الشباب عالم الإخراج بأنفسهم دون رقيب، وأعادوا فتح الاستديوهات وابتكروا طرقاً جديدة للسرد والعرض، وكان فى طليعة هذه النخبة المخرج «زى فاى» و«زانج نوان زين» أول وجه نسائى بارز فى هذا المجال، حيث تميز منتجهم السينمائى بكونه الأقرب الى محاكاة موجة "الواقعية" الإيطالية الجديدة.

وفى عام ١٩٧٨ أُعيد افتتاح أكاديمية بكين للسينما، وتولي المعلم الكبير "ني زن"

التدريس بها، ويعد الدارسون الأوائل بهذه الأكاديمية بمثابة النواة التى مهدت لظهور "**الجيل الخامس**" من السينمائيين الصينيين، حيث وفرت الأكاديمية للمبدعين الصينيين فرصة الاطلاع على السينما العالمية، كما ساهمت فى صياغة هوية سينمائية ترتبط بالجذور الصينية وثقافاتها العميقة، وهو ما كان يتعارض مع الاتجاهات السائدة لعصر ما قبل الثورة الثقافية.

كذلك استقى أبناء هذا الجيل فلسفتهم السينمائية من الطبيعة، حيث اقترن المضمون الفنى بالطبيعة، وصنعوا أفلاماً ريفية تمجدها من خلال توظيف باهر "لتقاليد الصين وتاريخها الطويل، فيما ساهمت قواعد الفنون التشكيلية الصينية برسم كادر الصورة والمونتاج الخاص بأفلامهم .. ومن أهم مخرجى هذا الجيل "تشن كايجى" صاحب فيلم الأرض الصفراء ، " تيان زوانج" وفيلمه "قانون أرض الصيد" ، و"زانج ييمو" الفائز بجائزة "الدب الذهبى" فى مهرجان برلين عام ١٩٨٧عن فيلمه " الذرة الحمراء".

أفلام "الموجة الجديدة" تخطف الأنظار

جسدت حقبة التسعينيات علامة فارقة فى تاريخ صناعة السينما الصينية، التى كان لها السبق فى الإعلان عن نفسها بما تمتلكه من قدرات إنتاجية لخلق سوق محلي هائل، بل بشرت بصعود الصين فى ذلك الحين، كقوة اقتصادية وسياسية وعسكرية ضاربة، وفي ظل سياسة الإصلاح والإنفتاح آنذاك تكثف التعاون السينمائي بين الصين والدول الأخرى، مما أدى إلى تطور السينما الصينية شكلاً وموضوعاً، وترويج الأفلام الصينية الوطنية خارج الحدود.

وبفضل ظهور التكنولوجيا الرقمية، التى استفاد من تطورها المخرجون الصينيون، خاصة فى مجال السينما الوثائقية والتسجيلية، ظهر ما يعرف بـ "السينما الصينية الجديدة" أو "موجة الأفلام الجديدة" التى مهدت لظهور "**الجيل السادس**" من السينمائيين الجدد، حيث أخذت هذه الأفلام تفرض وجودها على كافة مهرجانات السينما الدولية منذ ذلك الحين وحتى الأن، نظراً لتبنيها رؤية سينمائية أكثر واقعية، تختلف تماماً عن تلك التي كانت سائدة مع نظم الانتاج الكلاسيكية.

ومثلما جذب نتاج "الجيل الخامس" أنظار المهتمين بالشأن السينمائي الصينى، فقد جاء

"**الجيل السادس**" ليخلق ميلاداً جديداً للسينما الصينية، مستفيداً مما وفرته التقنية الرقمية من إمكانيات هائلة فى رصد وتوثيق الحياة اليومية، خالقاً سينما جديدة تخلط بين الواقعي والخيالي وفق خيار فني وسياسي، فى ظل رغبة جامحة لتسجيل وتوثيق ما يعيشه المجتمع من قضايا وإشكاليات.

وقد تميزت "أفلام الموجة الجديدة" بالجرأة السياسية المدهشة واهتمام مخرجيها بالعثور على جماليات جديدة فى التعبير السينمائي، باستخدام الصور المجازية، والألوان، والإيحاء، إلى جانب التنقيب فى التاريخ والأدب الصيني عن نماذج تصلح للتعبير عن الهوية والثقافة الصينية، حيث لاقت هذه النوعية من الأفلام قبولاً ملحوظاً وأثبتت جدارتها على صعيد المنافسة العالمية، كما حصدت الجوائز فى المهرجان الدولية، ونالت القبول والنجاح فى الخارج أكثر من الداخل.

وقد تميز مخرجو مرحلة "السينما الجديدة" من أمثال **"تشين كايج"**، **"هوانج تسيامن"**، **"جانج زيمنج"** و "**وانج زياشواى**" بتكريس المزيد من الاهتمام لتناول المشكلات التي يمر بها المجتمع الصيني، مع الحفاظ على الموروث القيمى وحضوره الدائم داخل أعمالهم.

فعلى سبيل المثال يعد فيلم "**الأرض الصفراء**" من انتاج عام ١٩٨٤- والذى يؤرَخ به بداية ظهور حركة السينما الصينية الجديدة – بمثابة الظهور السينمائي الأول الحقيقي للسينما الصينية الجديدة، حيث لاقى قبولاً جماهيرياً وبخاصة فى مهرجان "هونج كونج السينمائي"، لكنه أثار بعض الجدل، حيث يعيد الفيلم مناقشة إحدى الأساطير الراسخة فى تاريخ الحزب الشيوعي الصيني، كما ينتصر لمبادىء الميثولوجيا .. ولا عجب أن يهز هذا الفيلم عرش السينما الصينية التقليدية السابقة، حيث أحدث انقلاباً فى جماليات الفيلم الصيني، وامتاز بأسلوب سينمائي يهتم بالثقافة البصرية والقدرة التعبيرية الصامتة على توصيف الوجود والطبيعة.

كما يعد فيلم **"آخر أيام الشتاء"** للمخرج "وي تسينيو" أول فيلم صيني عن "الكولاج" الصيني، وأحد أهم الأفلام التى رصدت معاناة البعض داخل المعسكر الشاسع للأشغال الشاقة فى صحراء الشمال الغربي للبلاد، بينما تعرض فيلما **"في أرض العيد"** و**"سارق**

الحصان" لـــ "تيان جوانغ جوانغ"، إلى رصد الواقع الحياتي والروحاني للأقليات العرقية فى منغوليا الوسطى والتبت، أما فيلم **"أغنية سوان"** الذي أخرجه "جانج جيمنج"، تطرق الى قصة الموسيقار الصيني المسن، الذى ظل يدافع عن الموروث الثقافي الصـــيـــنـــي، وجميعها أفلام حققت صدى كبيراً بسبب انقلابها على الفهم الايديولوجي للسينما ولقناعة صانعيها بأن الايديولوجيا لا يمكن أن تصل الى روح الفنان وإلى فهم الطبيعة الاجتماعية للفرد ومشكلاته الاقتصادية والنفسية.

كذلك ظل الموروث التاريخي موضوعاً أساسياً فى أفلام الشباب، وتحديداً الـــحـــرب الصينية اليابانية، التى جسدها فيلم **"الواحد والثمانية"** من إنتاج ثلاثة شباب هم "جانـــج جونزهاو" والمصور "جانج ييمو" ومصمم الديكور "هي كن".. الفيلم يختلف عن كل ما سبقه من أفلام صينية، من حيث نصوص حواره القاسية وسلوك أبطالـــه الـــوحشـــي، ليتناسبان تماما مع لقطات المخرج "جانج ييمو" المروّعة، إذ يوجه الفيلم نقداً لم يسبق له مثيل لدور الجيش الشيوعي (الجيش الأحمر).

وسرعان ما أعقب فيلم **"واحد وثمانية"** أفلام أخرى، منها فيلم **"القـــرار الســـري"** للمخرج "وي جينيو"، الذي جمع بين الابتكارات البصرية والشكلية والجرأة فـــى طـــرح موضوعه، ويدور الفيلم أيضا أثناء فترة المقاومة الصينية ضد الغزو الياباني.

فيما واصل هؤلاء المخرجون الجُدد تحريك عدسة الكامير باتجاه ساخر نحو قضايـــا المجتمع المختلفة، وهو ما تجسد فى فيلم **"حادثة المدفع الأسود"** الذي استعرض مسألـــة "الديمقراطية الصينية الجديدة" بقدر من الإسقاط، ليتضاعف معه إيمان السينمائـــيـــيـــن الشباب بأن السينما كفيلة بتعليم الجمهور عبر الرمز والايحاء.

ورغم كل ما أثارته أفلام "الموجة الجديدة" من جدل وصل إلى حد الهجوم، إلا أنهـــا واصلت اكتساب شعبية عريضة، حيث تمكن هؤلاء المخرجون الجدد عبر أفلامهم مـــن تجديد دماء السينما الصينية القديمة، بالرغم من تواضع أعدادها قياساً بالانتاج الكـــلـــي لصناعة السينما فى الصين.

كذلك اعتادت الصين إقامة مهرجانات سينمائية سنوية منها اثنان لهما شهرة دولية هما مهرجان تشانغتشون ومهرجان شانغهاي السينمائي الدوليان، وتعتبر جائزة الديك الذهبي

أعلى جائزة تمنح للأفلام الصينية بالإضافة إلى جائزة المائة زهرة وهى جائزة يكون الجمهور فيها "لجنة التحكيم" .

سمات وخصائص كرست لبلوغ القمة

تمتاز السينما الصينية الجديدة بثراء هائل فى عدد المخرجين والأفلام، مما جعلها من المشاركين الرئيسيين فى أغلب المهرجانات السينمائية الدولية، لكنها على اختلاف وتعدد إنتاجها السينمائى، ظلت حريصة على توظيف السينما كساحة لمناقشة الأفكار المجتمعية والقناعات الفكرية، إلى جانب التعبير عن أهم الملامح التى اسهمت بدورها فى التأثير على الفرد والمجتمع، وخاصة رصد المنحنى الاقتصادى الذى كان له تأثيراته على تطور المجتمع الصيني مع حيث تزايد أعداد المشاهدين وتعاظم نسب التردد على دور العرض السينمائية.

ومن ثم تتجلى أهم خصائص السينما الصينية الجديدة بأنها تتعامل مع التراث بمفهوم عصري وتتناول التاريخ بمنظور نقدي، كما طرحت بشجاعة العلاقة بين الرجل والمرأة، وبين السلطة والفرد، وتناولت موضوعات الحب بجرأة، ولكن بأصالة ورقة وتمسك بالجذور دون انغلاق، بل انفتحت على الثقافة العالمية واستفادت من التراث الإنساني فى الشعر والمسرح والفن التشكيلي والأدب وهي لا تتعامل مع التاريخ لمجرد الرغبة المعرفية فى ابداء الحنين للماضي، بل من أجل فهم النسيج الاجتماعي القائم وأسباب جموده ومقاومته المستمرة للتغيير، كما يتميز عدد من أفلامها بتناول جانب من التجربة الشخصية للمخرجين، ورغم كل هذا فإنها اختلفت اختلافا جذرياً عن سينما الآباء التي تبنت الأيديولوجية الاشتراكية.

كذلك اشتركت الافلام الصينية على اختلاف تنويعاتها فى سمات شديدة الخصوصية، كان على رأسها الابتعاد عن الطابع المسرحي الذي لعب دوراً كبيرا فى ترسيخ تقاليد "الواقعية الاشتراكية"، فضلاً عن تقليص مساحة الاعتماد على الحوار، والإعلاء من دور الصورة فى التعبير عن المضمون، الأمر الذى أسهم فى خلق المزيد من التباين والتنوع فى الموضوعات التى عالجتها الافلام الصينية الجديدة، إستناداً إلى تبنى زوايا و رؤى خلاقة فى التناول .

فيما تسعى هذه الأفلام إلى تأسيس منصة سينمائية متميزة، تتحرر تماماً من تأثيرات كل من "هوليوود" و"موسفيلم"، فضلا عن تخففُها من أسلوب التلقين، والتعامل بانسيابية مع ما تطرحه من موضوعات فى شتّى الزوايا، كى تتيح للمشاهدين فضاء كافياً للوصول إلى قناعاتهم الشخصية، وعقب ثلاثة عقود من التقليدية، اكتسبت السينما الصينية عبر أفلامها الجديدة طابع الغموض والفانتازيا، وصبغت الصورة الصينية بذلك الطابع الخاص والحسّ الواعى الناضج تجاه العالم، كما لم تقطع أفلام الموجة الجديدة صلتها بتقاليد السينما الصينية، بل إنها أعادت رؤيتها وصياغتها الفنية لهذه الموروثات الفنية ولكن بمنظور الحداثة.

والواقع يمكن لمتابعى الساحة السينمائية العالمية ملاحظة خطوات "العملاق الأصفر" الرشيقة للوقوف على قدم المساواة، بل ومنافسة "هوليود".. قلعة السينما الأمريكية، استناداً إلى ما حققته الصين من نجاحات لافتة فى القطاع السينمائى بفضل خصوصية منتجها وقدرته الفائقة على المنافسة، فلم يعد الصراع القادم بين القوى العظمى تقليدياً وقاصراً على السياسة والاقتصاد فحسب، بل سيطول أوشحة القوى الناعمة ، لذا راح يتسارع أغنياء العالم على غزو "هوليود"، حيث تمكن رجل الأعمال الصينى الشهير "وانج جيانلين" – صاحب أكبر دور سينمائية فى العالم – من عقد صفقات وشراكات ضخمة مع كبريات شركات الانتاج السينمائية الأمريكية ، وذلك عبر شركته "داليان واندا".

وقد أكد الملياردير الصينى على أن شركته ستعمل مع هوليوود، وأن هناك فوائد مشتركة عابرة للحدود نتيجة التنسيق بين أكبر سوقين للإنتاج السينمائى، حيث يعمل " وانج" مع أكبر ٦ شركات للانتاج السينمائى فى هوليوود، وأصدر وثيقة «التزامات الانتاج» من أجل الترويج لمبادرته بالتصوير على الاراضى الصينية، بتخفيضات جاذبة، حيث يتم حاليا تجهيز الاستوديو الصينى "تشينجداو"، ومن المقرر افتتاحه فى أغسطس ٢٠١٨ حيث يضم ١٥ قاعة عرض و ١١ استوديو.

إلا أن صفقات "واندا" لم تمر مرور الكرم، حيث لا تزال الأفلام الامريكية تلعب دوراً حاسماً فى المنافسة الإستراتيجية والإيديولوجية بين الصين والولايات المتحدة وهو ما دفع

١٦ من أعضاء الكونجرس لكتابة خطاب يدعو إلى وضع الاستثمارات الصينية فى صناعة الأفلام الامريكية تحت التدقيق، وطالب السيناتور الجمهورى "فرانك وولف" بمراجعة البوكس أوفيس الصينى، ومعرفة ما اذا كانت الافلام الامريكية تخضع للرقابة الصينية.

مشاركة سينمائية بارزة وحصاد مبهر لأهم جوائز المهرجانات

منذ عشرين عاماً كانت المشاركة الآسيوية بصفة عامة لا تتجاوز فيلماً أو فيلمين فى مهرجان "كان" ومهرجانات السينما الكبرى، وأغلبها كان من اليابان. ومنذ عشرة سنوات على الأقل، ومع الطفرة التى شهدتها صناعة السينما فى الصين، وظهور مؤلفين من طراز رفيع فى تايوان وفيتنام وغيرهما من السينمات الآسيوية الواعدة، استأثرت الأفلام الصينية داخل وخارج المسابقة، وفى البرامج الموازية، بالعدد الأكبر بعد السينما الأوروبية والسينما الأمريكية، حيث ظهرت السينما الصينية بقوة على خريطة السينما العالمية بفضل أصالتها فى التعبير عن الموروث الشعبي فى أعمالها، وخلال الفترة من ١٩٤٩ وحتى ١٩٩٥ فازت الأفلام الصينية فى المهرجانات العالمية بأكثر من (٤٠٠) جائزة.

ويعد فيلم "**الذرة الحمراء**" للمخرج "زانغ ييمو" من انتاج عام ١٩٨٧، أول فيلم صيني يحصل على جائزة كبرى فى مهرجان دولي وهي "الدب الذهبي" من مهرجان برلين السينمائي ١٩٨٨ – لكنه أثار ردود فعل عنيفة فى الصين عقب عرضه، لاتسامه بجرأة التناول وتعرضه لمسألة محظورة، لم يجرى تناولها داخل الثقافة الصينية التقليدية، وعبر عن الأحاسيس الداخلية للمرأة التي كانت من المحظورات فى الأدب الصيني التقليدي، كما صور العلاقة القمعية بين الرجل والمرأة فى المجتمع الذكوري.

أما الفيلم الشهير "**المصابيح الحمراء**" للمخرج "زانغ ييمو" من انتاج عام١٩٩١، ترشح لجائزة الأوسكار لأفضل فيلم أجنبي عام ١٩٩٢، وحصل على جائزة (الأسد الفضي) فى عام ١٩٩١ فى مهرجان فينيسيا الدولي، حيث امتاز بجماليات عالية، واستخدامه الحيوي للألوان ومزجه شريطي "الصوت والصورة"، حيث اعتبره النقاد والمشاهدون فى العالم كله أحد الأعمال السينمائية التي بلغت حد الكمال الفني سواء من

ناحية بنائه السينمائي أو أسلوبه التشكيلي أو أداء ممثليه.

وكذلك حصل فيلم «**وداعا ياخليلتي**» للمخرج "تشين كايج"، على جائزة السعفة الذهبية فى مهرجان "كان" السينمائي ١٩٩٢، حيث يتناول زمنياً التطورات التي شهدتها الصين على مدار خمسين عاما من النظام الاقطاعي حتى الغزو الياباني ــ ثم الثورة الثقافية– وهو فيلم ملحمي، أدان الايدلوجيات الشمولية وانتصر للفرد.

أعقب ذلك بأشهر قليلة انتزاع المخرج المبدع "**زانغ ييمو**" دب برلين الذهبي عن رائعته "قصة كيو جيو" فى عام ١٩٩٣، فيما فازت الممثلة الحسناء "غونغ لي" بجائزة أفضل ممثلة عن دورها فى فيلم "**لتعيش**" للمخرج "زانغ ييمو" فى مهرجان كان لعام ١٩٩٤.

وفى عام ٢٠٠٦ فاز الفيلم الصينى "**مازال حياً**" للمخرج " جيا تشانغ كه"– أحد أعلام حركة الجيل السادس للسينما الصينية – على جائزة "الاسد الذهبى" فى مهرجان فينيسيا السينمائى، حيث تتميز أفلامه بالكشف عن أبعاد متلازمة الحب والكراهية داخل نسيج المجتمع من خلال تجسيد بانوراما حياة الأفراد بصورة فنية يغلب عليها الطابع الشعرى .

وللعام الثالث على التوالي احتفى مهرجان فينيسيا السينمائى الدولى بالسينما الصينية، حيث خصص قسم خاص فى دورته الأخيرة يحمل عنوان "التواصل مع التنين"، ثم أعقب ذلك حصول الفيلم الصيني "**لست مدام بوفاري**" على جائزة الاتحاد الدولي لنقاد السينما فى مهرجان تورنتو السينمائي، ثم مضى الفيلم نفسه ليحصل على جائزة أحسن ممثلة لبطلته الممثلة الشهيرة "فان بنغ بنج" التي عرفت خارج الصين بدورها فى فيلم "الرجال إكس"، بل ونال أيضا جائزة أحسن فيلم واستطاع أن ينتزع الجائزة الذهبية فى مهرجان سان سباستيان، وهو ما يعد مؤشراً فعلياً على عودة السينما الصينية بقوة إلى الساحة العالمية.

وفى عام ٢٠١٤ حصد فيلم "**فحم أسود.. ثلج رقيق**" للمخرج "دياو ييننان" جائزة "الدب الذهبى" من مهرجان برلين السينمائى الدولى، والفيلم ذو طابع اجتماعى بوليسى، يتبع تقنية ما يسمى بالمتاهات البوليسية وإحكام لغز مُحير تدور حوله الاحداث بقدر عال من الحرفية والترابط الدرامى دون القدرة على الاستباق من جانب المشاهد.

كذلك انتقل الاهتمام بسينما العملاق الأصفر إلى مهرجان القاهرة السينمائي الدولـــى، حيث اختارت إدارة المهرجان "السينما الصينية" ضيف شرف للمهرجان فى دورته الثامنة والثلاثين المنعقدة فى نوفمبر ٢٠١٦ ، وذلك فى إطار الاحتفال بمرور ٦٠ عاماً على بدء العلاقات السياسية بين مصر والصين، حيث حصل المخرج الصينى "جيا تشانغ كه" على جائزة " التميز" من المهرجان.

وفى عام ٢٠١٦ حطم الفيلم الصينى "حورية البحر" للمخرج "ستيفين شـــو" الأرقـــام القياسية، ليحقق أعلى إيرادات فى تاريخ السينما الصينية، وهو فيلم كوميدى مـــن نـــوع الفانتازيا، حيث حقق إيرادات خيالية بلغت ٥٥٣,٧ مليون دولار، واستطاع الفيلم بهـــذه الإيرادات أن يتخطى الأرقام القياسية التى كان قد سجلها الفيلم الصينى فى العـــام الـــذى سبقه.

فيما حقق فيلم الحركة "الذئب المحارب ٢" ايرادات ضخمة بلغت ٦٧٩,٣ ملـــيـــون دولار وذلك فى اليوم الـــ ١٧ من عرضه الاول فى يوليو ٢٠١٧ ، ليحتل بذلك المركز الـــ ٩٩ فى قائمة أعلى ١٠٠ فيلم عالمى من حيث الايرادات، وهى المرة الاولى التـــى يدخل فيها فيلم صينى وكذلك أسيوى هذه القائمة، مما يكسر تابوهات احتـــكـــار أفـــلام هوليود لهذه القائمة، حيث من المتوقع أن يصل إجمالي إيرادات الفيلم إلى ٧٩٨ مليـــون دولار أمريكي فى نهاية موسم العرض، وقد أثار الأداء القوي لهذا الفيلم الصيني قلـــق هوليوود، ونقلاً عن مجلة "فوربس" الأمريكية فإن جاذبية أفلام هوليوود قد تنخفض فى السوق الصينية إذا استطاعت الصين إنتاج فيلم ناجح كما أنتجته هوليوود، وذلك سيؤثر على إيرادات شباك تذاكر أفلام هوليوود فى السوق الصينية فى النهاية.

وفى أحدث حصاد للسينما الصينية فاز الفيلم الصيني "صوت الصمت" للمخرج "يانـــغ يو" بثلاث من أبرز جوائز مهرجان الأردن الدولى للافلام المنعقد خلال شهر سبتمبر من عام ٢٠١٧ ، ليكون بذلك قد حصل على جوائز المهرجان كأفضل فيلم وأفضل ديكـــور وأفضل ممثل.

آليات داعمة لبلوغ مرحلة ما بعد الصناعة

تولى الحكومة الصينية اهتماماً بالغاً بدعم النهج الإبداعى فى قطاعها الثقافى، ويأتـــى على رأسه صناعة السينما باعتبارها الأكثر وصولاً إلى شرائح عديدة من المجتمع، كما

أنها تقدم الرسالة الثقافية فى الداخل والخارج وتمتلك أدوات الانتشار الواسع، لذلك تبذل الحكومة الصينية جهوداً واضحة لتنمية قطاعها السينمائى، لتتخطي بذلك مرحلة ما بعد الصناعة، حيث يتواجد فى المدن الصينية ما يربو على ٦٢٠٠ دار سينما، إضافة إلى أكثر من ٣٠ ألف شاشة عرض سينمائية، وذلك بحسب وكالة الأنباء الصينية، كما أجرت الهيئة الصينية العامة للإذاعة والسينما والتليفزيون تعديلات كبيرة فى سياساتها الإدارية والرقابية، لتحقق قدراً كبيراً من المرونة، وسمحت بتملك الأجانب ٧٥% من أسهم دور العرض السينمائية، الأمر الذي شجع رؤوس الأموال الأجنبية على الاستثمار فى حقل السينما الصينية، وأدى بدوره الى انتعاش سوق الأفلام التاريخية والروائية .

فى حين يتزايد إقبال الشباب الصيني من سكان المدن والطبقات المتوسطة على الذهاب إلى السينما، ووفقاً لبيانات الإدارة العامة للصحافة والنشر والإذاعة والسينما والتلفاز، أنفق الصينيون فى عام ٢٠١٥ ما يزيد على ٦,٥ مليار دولار أمريكي على شراء تذاكر السينما – بزيادة قدرها ٥٠ فى المائة تقريبا عن العام الذى سبقه. هذا إلى جانب افتتاح ما يزيد على ٢٠ قاعة سينما يومياً لاستيعاب الطلب، وإذا ما استمر النمو فى إيرادات شباك التذاكر بالمعدل الحالي فى الصين، فإنها ستصل إلى١١,٩ بليون دولار أمريكي بنهاية عام ٢٠١٧، متفوقة بذلك على الولايات المتحدة، حيث يبلغ نصيب الأفلام الصينية ما يربو على ٦٠ % من هذه الإيرادات، مع زيادة فى أفلام الحركة والمغامرة على صعيد التوزيع المحلي .

فيما أبدت الحكومة الصينية إلتزاماً قوياً تجاة الصناعات الإبداعية، حيث يقول "أندرو وايت"– أستاذ الوسائط الرقمية بجامعة نوتنغهام نينغبو: " كلما امتلكت الصين سوقاً قوياُ لصناعة السينما، كلما امتلكت أحد أهم الآليات الأكثر فاعلية نحو مستقبل ما بعد الصناعة، مما يجعلها تُنافس عواصم عريقة مثل لندن وطوكيو ونيويورك فى هذا المجال ، وذلك بخلق مناخ إبداعى ثرى يحقق هذه الغاية"

وهناك العديد من الأصوات الوطنية التى تدعم هذا التطلع، بانتهاج آلية أكثر قوة لحماية الملكية الفكرية، كما يُعد مشروع أحكام تعزيز قانون حق المؤلف، وتصديق الصين على معاهدة بكين بشأن الأداء السمعي والبصري فى ٢٠١٤، والقانون الخاص

بتعزيز صناعة الأفلام، من المؤشرات القوية على التزام الحكومة بحماية حق المؤلف فى صناعة الأفلام فى الصين.

هذا فضلاً عن قرار الحكومة بوضع سقف لعدد الأفلام الأجنبية التي تُعرَض فى دور السينما الصينية، وعلى الرغم من عدم تقبل مديري الاستديوهات الأجانب لسياسة الحصص، إلا أنها أتاحت للصناعة المحلية الصينية الوقت والمساحة اللازمين للنمو، كما أدت القوانين التي تمنع الشركات الأجنبية من صنع أفلامها فى الصين إلى ميلاد مشروعات وصفقات انتاج مشتركة، مما أتاح فرصة أكبر أمام صُناع الأفلام الصينية والشركات المملوكة للدولة أن تقوم بتوزيع الأفلام الأجنبية عبر ضوابط محددة، للقضاء على القرصنة.

هذا وقد تزامنت القفزات التكنولوجية التي حققتها الصين جرّاء تحولها إلى الإنترنت والتكنولوجية الرقمية ، مع وجود بعض المعوقات التى اعترضت طريق صناعة الأفلام، فلا يزال صنَّاع السينما الصينية يعانون من مشاكل القرصنة الالكترونية ، رغم أن المحاكم الصينية تزداد صرامة إزاء منصات الإنترنت التي تسهل انتهاكات حق المؤلف... ويحذر "تشانغ ون لونغ" – مسئول أحد برامج الإدارة الوطنية لحقوق المؤلف – القراصنة من إجراءات قاسية تتخذها الحكومة فى مواجهة أعمال القرصنة، وذلك فى إطار الحملة السنوية **"Sword Net"**، كما أشاد الممثل التجاري للولايات المتحدة فى "تقريره السنوي الخاص" بالجهود التي بذلتها السلطات الصينية مؤخرا لمكافحة القرصنة، وسلط الضوء على تسجيل غرامات إدارية قدرها ٤٢ مليون دولار أمريكي ضد موقع " **QVOD**" المعروف بقرصنة الفيديو على الانترنت.

كذلك أسهمت نماذج الأعمال التجارية التي عكفت الشركات الصينية على تطويرها لتوزيع الأفلام والمحتوى السمعي البصري عبر الانترنت، فى تحويل الصين إلى واحدة من أكثر الدول حرصاً على حماية حقوق الملكية الفكرية للمؤلف ، حيث يقوم المسئولون التنفيذيون والباحثون بمراقبتها عن كثب..

ومما سبق استعراضه_تبدو السينما الصينية بمثابة قصة متعددة المستويات، تتمازج بها عناصر متضافرة ومنسجمة من الإثارة واللمحات الانسانية والفلسفية العميقة، إلى جانب

التجانس الذكى ما بين الواقعية الايجابية والخيال التوظيفى، فيما تتسم أيضاً بالخصوصية الشديدة على مستوى الموضوعات وطرق المعالجة، فضلاً عن تكريس المزيد من الدعم، وتوفيرالمناخ الابداعى الملائم لرفع القدرة التنافسية للمنتج السينمائى الصينى، ومن ثم استطاعت السينما الصينية أن تعيد موقعها للمنافسة السينمائية العالمية، ليعيد معها المعنيون بالشأن السينمائى حساباتهم من واقع ذلك المتغير الجديد، خاصةً القائميين على النواحى التنظيمية للمهرجانات العريقة، فلم تعد تخلو مسابقة دولية أو مهرجان سينمائى هام إلا وانتزع "العملاق الأصفر" أحد أهم جوائزه، لتصبح الصين بذلك منافساً قوياً فى مواجهة الولايات المتحدة على كافة الأصعدة بما فى ذلك الصعيد الفنى والسينمائى، الذى يعد أحد أقوى الأدوات المؤثرة فى جعبة الكيانات الدولية العظمى.

المصادر

- أمير العمري، **السينما الصينية الجديدة**، المجلس الاعلى للثقافة ، مصر، ٢٠٠٠.
- جون ميشيل، **نظرة على السينما الصينية**، ترجمة أسامة عبد الفتاح، مهرجان القاهرة السينمائى، القاهرة، ٢٠١٦.
- أمير العمرى،"السينما الصينية تنهض بعد صحوة الجيل الماضى"، **صحيفة العرب**، ٢٠١٦/١٠/٢٣ ، متاح علي الرابط :
  http://www.alarab.co.uk/article/Opinion/92940%D8%A7%D
- محمد عبيدو، "تاريخ السينما الصينية"، **مجلة أصوات الشمال**، ٢٠٠٦/٧/٢، متاح علي الرابط :
  http://www.aswat-elchamal.com/ar/?p=98&a=836
- صلاح هاشم ،" مناقشة السينما الصينية فى مهرجان القاهرة السينمائى الـ ٣٨"، **موقع عين السينما**، ٢٠١٦/١١/٢٨، متاح علي الرابط :
  http://eyeoncinema.net/Details.aspx?secid=33&nwsId=3754
- محمد عبيدو، "إضاءة على السينما الصينية "، **موقع الحوار المتمدن**، ابريل ٢٠٠٦، متاح علي الرابط :
  http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=63537
- رشا عبد الوهاب ، "هوليود الصينية فى قلب أمريكا" ، **جريدة الأهرام** ، ٢٠١٦/١٠/٢٦ متاح علي الرابط :
  http://www.ahram.org.eg/News/192065/45/557756/
- ليلاس سويدان، "السينما الصينية تغزو العالم بوجه امريكى"، **موقع القبس الاليكترونى**، ٨/٥/ ٢٠١٦، متاح علي الرابط :
  https://alqabas.com/160186/
- Emma Bracclao," The rise of filmmaking in China **", wipo magazine** April 2016 ,Available at:
  http://www.wipo.int/wipo_magazine/ar/2016/02/article_0004.html